المعاناة والإبداع في نظم القصيدة النبطية

د. سعد العبدالله الصويان

مقدمة :

صدر القثامي فاح من رَدّ الاقراح ... كلٍ من الشعّار عنده هَقاوي
وليا بدعت القاف ما نيب زهّاف ... بيطّار في رَدّ المثايل قِصاوي
لولاه والغليون لاصير مجنون ... وانّي لاظلّي بالزرايب خلاوي[1]

يتفنن الشعراء النبطيون في التعبير عن المعاناة التي يمرون بها خلال عملية النظم . ومن التقاليد المتوارثة عندهم أن يستهل الشاعر قصيدته بعدة أبيات يصف فيها مشقة النظم ويعبر عن رأيه في الإبداع الشعري ومفهومه له . وتكوّن هذه الافتتاحية جزءاً لا يتجزأ من البنية الفنية والنسيج الكلي للقصيدة النبطية، كما هي الحال بالنسبة للمقدمة الطللية أو الغزلية أو الرحلة في القصيدة الجاهلية . وعن طريق دراسة هذه الافتتاحية وتحليلها نستطيع أن نستخلص آراء الشعراء النبطيين وممارساتهم في نظم قصائدهم . وفي هذه المقالة سوف نحاول عن طريق الأمثلة أن نفسح المجال أمام الشاعر النبطي ليعبر لنا عن وجهة نظره فيما يتعلق بقضايا الإبداع والمعاناة في نظم الشعر .

الفيض والتدفّق :

يعتبر الشاعر النبطي كلماته مرآة تعكس مشاعره الخاصة وعواطفه الدفينة التي يجاهد في سبيل إخفائها عن عامة الناس ، بما فيهم الوشاة والفضوليون ، والاحتفاظ بها لنفسه وربما لأعز أصدقائه وأقرب أقربائه ، لأنها كما يصفها الشعراء : **سَدّ ، خفا ، عزا** . وكل هذه الكلمات تعطي معنى السر المصون ، المكنون ، الخفي ، وفي نظم الشعر الذي يتغنى به الركبان وينشده السمار في المنتديات ويشيع بين الناس يعري الشاعر نفسه ويفشي سره : **يبيّح سده ، يبيّح كنينه ، يبيّح عزاه ، يبحث خفاه** . وعلى الرغم من الوعود والمواثيق الغليظة التي يأخذها الشاعر على نفسه والمحاولات التي يبذلها للتستر وعدم البوح فإن شيطان الشعر يغلبه على أمره فينقاد له ويستجيب لداعي الشعر وتتفجر طاقات الإبداع الكامنة لديه : **«هاض الغرام وباح ما كنت كامي» ، «هاض مكنوني وهيّضت الجواب» ، أبديت سدًّ في لجا الروح مقفول» ، «عقب الحيا باح مكنوني» ، «من يوم صندوق الحشا بالخفا بان»** .

ويقول عبد الرحمن البراهيم الربيعي :

حضر هاجسي وأبديت ما بالحشا خافي ... كلام كما نظم الجواهر بالأوصافِ
جوابٍ لبيبٍ من أديبٍ نطق بـه ... من الجاش جهّاش تقافا على قاف
مِتْكَلِّفٍ في كتم مـا صـاب مهجتي ... حريصٍ أبي أخفي على الناس ما جا في[٢]
فلا شك ضاق الجاش وأبديت ما خفا ... ولو ردت كتمه بالحشا ليس هو خافي
وقـامت تهـلّ العين ماهـا ودمعهـا ... سفوحٍ جروحٍ فوق الأوجان ذَرّاف
عـلى جادلٍ كـالشمس غـرّة جبينهـا ... والجيد جيد الريم وإن شاف ما عاف

والشاعر بطبيعته رقيق المشاعر مرهف الإحساس (مْشَقّى ، مْعَنّى) سريع التأثر بما حوله ودائم التفكير بأحوال الناس وتقلبات الزمان يتفاعل مع أحداث المجتمع ويشارك الناس همومهم ومشاعرهم ، كما أن له آماله وآلامه الخاصة . وهو فوق ذلك كله إنسان نذر نفسه للحب والجمال (مغرم ، **مولّع** ، مشعوف ، راعي هوى) لا يترك له قلبه (**قلب الشقا** ، **قلب الخطا**) فرصة لهدوء النفس وراحة البال . كل شيء يسترعي انتباهه ويثير احساسه ويهيض أشجانه (**ينقّض جروحه**) من الأطلال إلى الرحيل إلى طيف الحبيب إلى البرق إلى نوح الحمامة

إلى حنين الناقة . كل هذه المواقف والمشاهد تشحذ قريحة الشاعر وتدفعه إلى قول الشعر : **«هيّض أشواقي حمامٍ في الغصون» ، هاض ما بي يوم دنّوا للرحيل» ، «هيّض القلب تال الليل سبعٍ عوى» ، «أنا هاض ما بي نوض برّاق» ، «هيّض عَلَيّ جويدلٍ ما تَغَطّي + يلعب مع الصبيان بام الخطوط» ، «عَدّيت بالمرقاب يوم انّي اضحيت + وهاضت على القلب المشقّى شطونه»** يقول محمد العلي العرفج :

هاض الغرام وبـاح ما كنت كـامي ... ومن العبابير هـاض ما كـان مكتوم
والتجّ جاش الجـاش وابدى غـرامي ... مِلْتَجّ في لاجي دجا الروح مردوم[٣]
ومن العنـا يـانـاس هيّض غـرامي ... حيفٍ ولايصبـر على الحيف شغمـوم

ويقول عيّاد الخمعلي :

قـاد النشير وقمت اميـز عـرابـه ... وتتـابعن بـالصـدر مثل الـدواليب
تصـافقن بالصدر من حرّ مـا بـه ... وَرْدَن كـما ورد القطا بـاللواهيب[٤]
من شـوفتي لـلدار ينعق غـرابـه ... مـا باقي إلا مـاقد النار وحـطيب

ويقول عبدالله بن ابراهيم الجابر :

جرى باليرى من ناوي البين عايقه ... ينمّق بيـوتٍ لـلفـواريـز لايقـه[٥]
في كاغـــدٍ كلون جنحـان زنجي ... من الحبر زج مزاج حبرٍ ملابقه
كتمته لى منه هيّضه طاريٍ طرى ... نهض هاض من قلبٍ عن البين فارقه

ويقول عيادة بن منيس :

نطّيت أنا من نـابي القـور قـاره ... المرقب اللي هيّض القيـل مـبروك
هـاضن عَلَيّ هيضـة جـراد الـزبـاره ... أخذت منهن سبعة آلاف ولكـوك[٦]

الشعر بحر متلاطم الأمواج :

وقريحة الشاعر القدير دائماً طوع إرادته ورهن إشارته ، تبقى كامنة مستكنة مثل الجمر

تحت الرماد الذي حالما ينبش ويضاف إليه الوقود يتطاير منه الشرر وتندلع ألسنة اللهب . وحينما تهيض قريحة الشاعر تنقاد له شُمُس القوافي وتتفتح له أبواب الشعر فيسهل عليه عبور سبله الصعبة وطرقه الوعرة . وحينما يتهيأ الشاعر للنظم يبدأ قلبه يجيش كالمرجل وتتوارد إلى ذهنه الخواطر والأفكار والكلمات والصور الشعرية كما ترد قطعان الإبل على حوض الماء وتتكاثر عليه مثل الجراد أو السيل الجارف ، ويشبهها البعض بالدر حين يجتمع في الضرع أو الماء حين يجم في البئر . ويتباهى البعض بأن قريحته تجهش مثل العد الذي لا يغور ولا ينضب ، ومنهم من يشبه قريحته بالطوفان أو الإعصار الذي يجترف كل ما هو أمامه : **«البارحه مابتّ ساهر بتوليف + وردن عليّ مثل التهامي ليا طار»** ، **«هاض مكنوني وهيّضت الجواب + كن صندوق الحشا قدرٍ يفوح»** ، **«من مغرمٍ فكره حضر تقل حالوب + مزنٍ تفجّر ماه بامر الولي جيب»** .

يقول زيد الخوير :

القيــل عنـدي مثـل جمٍّ ليا زاد ما ينتزح لـو ساهرتـه السـواني[7]

ويقول محمد العبدالله القاضي :

أعـذرت واحضرت القلم والسجلّه واد الحشا جا مكبرٍ من معاليه[8]
بمـزاج زاجٍ مـا حـلى زيـن تلّه وفـرّيت فكرٍ كـالتهامي تقـافيـه
وانشى غـمامـه من غـرامـه وهلّه فكرٍ حضر كالـدرّ من راي راويه

والمخاض الشعري في بدايته أشبه ما يكون بالهذيان والجنون ويدعي بعض الشعراء أنهم تنتابهم حالة شعورية غريبة أثناء النظم ، ويصابون بالذهول ومنهم من يذهب في غيبوبة : **«صرت كنّي في سدى فنّي غشيم + بي دليل الراي تاه ابه اليموم»** ، **«قالوا وراك مسجّمٍ قلت ابجيب + قافٍ صعب ما يدركه كل لعّاب»** .

ويقول محمد العبدالله القاضي :

إلى منّـك تعـلّيت الـنجيبـه فـجـوّد لي رسـنها يـاغـلام
قـدر يـانـادبي فـنـجـال بـنٍ أفيق من السكـر وادني قـلامي
وافـيّض غـايتي وابـدي كـنيـني وازجّ الـزاج في قـرطـاس شـام

تحمّل نسج نظمٍ من فهيمٍ   جهش من ضامري مثل التهامي

لكن هذا التدفق الشعري المصطخب والفيض العاطفي الجياش الذي يغمر قلب الشاعر ويستحوذ على شعوره لابد من تذليله وترويضه حسب ما تقتضيه عملية النظم من اتساق وانتظام وترابط بين المعاني والكلمات والمواضيع والصور الشعرية ، وذلك من أجل تلاحم أبيات القصيدة بعضها ببعض وإتقان بنيتها وإحكام عقد القوافي . فالشاعر لا يمكن أن يقبل كل ما يرد على خاطره ، بل لابد أن يردد نظره في القصيدة ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه ليصونها عما قد يفسدها أو يهجنها . وليست الاعتبارات الفنية والجمالية فقط هي التي تملى ذلك على الشاعر . بل قد يكون الأهم من ذلك أن الشاعر مسؤول عن كل مايتفوه به ، بل قد يكون حتفه فيما يقول ، خصوصاً فيما يتعلق بأغراض المدح والهجاء والمفاخرة والتطرق للقضايا المحلية والأمور القبلية . وإذا وضعنا في الاعتبار الأهمية السياسية والاجتماعية للشعر والدور الذي يلعبه في تحريك الأحداث فإننا نستطيع أن نقدر المسؤولية التي تقع على الشاعر وتفرض عليه أن يكون حريصاً في صياغة أبياته وعرض أفكاره بحيث تؤدي الغرض المنشود منها دون أن ينتج عنها أية آثار عكسية .

يقول محمد العبدالله العوني :

أمثال كالحص والياقوت هضتها   من فيض بحرٍ طمى فيضه على الجالِ
لولاي اكنّه واهينه عن تزايده   جميع بحرٍ طماه بشرب فنجال
لكن الى اغتاظ وحفّتني جوانبه   عن لطمة الموت زنجلته بالاقفال
والا فحلّت قفوله مع لوالبه   واقبل تدارج بغيضه غلظ الادقال
من هايضٍ بالحشا هيّضت حايره   والنوم عن ناظري قزّاه ولوال

ويقول زيد السلامة الخوير :

باح العزا ياالاديب قم دنّ الاوراق   قرطاس شامي صافٍ تقل غرنوق
ادنوا دواة الحبر وادنو لنا ساق   عود البراع بشذرة الموس مذلوق
ياالاديب عدّل لي حروفه بالاطراق   مازال قفل القلب ياالاديب مفهوق
اكتب من الامثال ياالاديب ما لاق   قيلٍ من اكنان الصناديق منسوق

قيل كما سيح إلى سار وانساق مع جدّةٍ عانق شبا كل طاروق[٩]

ويقول عدوان الهربيد :

اولّف اللي مثل نظم المسابيح دوم إلى احضرت القلم جنّك ارسال
من جَمّةٍ مركاه بين النحانيح ماقيل بيتٍ عن سنع حرفهن عال
من شاهن ينقل على الفطّر الفيح مع واحدٍ يتنى مقابيل الاجيال[١٠]

ويقول بندر بن سعد الضحيك :

الله من قلبٍ هجوسه تحدّه حدّة نجاجير الخشب بالمناشير
لولا ضلوعي للضماير تردّه وادايـر الحيلات وين المعابير
واقول قيلٍ باصرٍ في مشدّه صبّة جنيهٍ ما خُلط فيه قصدير[١١]

ويقول مطلق الصانع الروقي :

هواجسٍ جتني والاسلام هجّاع يشدن ورد الحاج فوق البرودِ
بغن لهن من بين الاضلاع مطلاع وحجرتهن حجر الفرس للقعود
قامت تقلّبني على كل الأنواع قلت اصبري لين اني آخذك قود[١٢]

رحلة الأعماق :

ويقارن شعراء النبط الإلهام الشعري بالريح حينما تهب، أما النظم فإنهم يشبهونه بالغربلة والتذرية التي تصفي الحب وتفصله عن التبن . وأحياناً يشبهون النظم بالإبحار لأنه رحلة ذهنية في بحر عميق من الأفكار والمعاني ، بحرها هائج مائج متلاطم الأمواج ، وهو ما يسمونه «بحر الهوى» أو «بحر الغرام» أو «بحر الغوى» . والشاعر حينما يتأمل فإنه يغوص إلى أعماق النفس الإنسانية ، وهو في بحثه عن المعاني والصور الشعرية شبيه بمن يغوص على اللؤلؤ في لجج البحر المخيفة المهولة .

يقول راشد الخلاوي :

درٍّ نفيسٍ منتقى كل منتقى كالدانة العفرا لذى الراي ناجبه

من لجةٍ يغرق بها من يغوصها ... ومن غاصها غِرٍّ غدى في غياهبه
وقد زارها قوم غدوا دون خدّها ... ياما وياما مركبٍ دَمّ صاحبه
غِبّات بحرٍ ما لها كود راشد ... معتادها من دون حبلٍ وجاذبه
جذبها لساني من جناني وصاغها ... على قالبٍ في كل ما زان جات به

ويقول عبد الرحمن البراهيم الربيعي :

جزى الجفن وانحى النجم والموق سايمه ... أدير الفكر والنوم ما نيب نايمه
أدير النظر والفكر في ماضيٍ مضى ... حلاة دنياً بيّناتٍ هضايمه
اقدّم لحالاتٍ واوخّر لمثلها ... واحسّب لقالاتٍ بدت لي علايمه
درج محملي في بحر الافكار واندفع ... بغبّات فكرٍ موحشاتٍ خضايمه
تتابع بزور الصدر من زود جورها ... بدت من بدا جورٍ من الوقت ضايمه
جنيت انا من بحر الافكار غايتي ... جواهر بيوتٍ مبهماتٍ نظايمه
ولا مقصدي منها افتخارٍ بشدها ... محالٍ بلا شيٍّ بقلبي مزايمه
إلى افكرت بالدنيا بدت لي عيوبها ... شاهد عيانٍ بيّنات وسايمه

وقد شبه عبدالرحمن العطاوي الشاعر أثناء عملية النظم بمن يعوم في البحر فهو مرة رأسه تحت الماء بحيث لايرى ولايسمع ولا يستطيع التنفس وهذا كناية عن انغماسه في النظم واستغراقه في التفكير ، وهو مرة أخرى رأسه فوق الماء وهذا كناية عن لحظات الانفراج القصيرة التي تأتي بعيد الانتهاء من صياغة أحد الأبيات وقبيل الابتداء في صياغة البيت التالي .

يقول العطاوي :

اليوم اعدل القاف في راس مشراف ... اغيص في بحر التماثيل واعوم
في غبّةٍ ما احتاج فيها لجداف ... ليا هاج موج الشعر انا فيه زيزوم

وقوله :

الشعر بحرٍ فيه فايز وغرقان ... واهل الغوايه في ضحاحه يعومون

وقوله :